

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فرمضان دعوة لازدياد الخير، وفرصة لتزكية النفوس، وقد بعث الله تعالى رسوله ﷺ ليعلم الناس ويزكيهم، كما علق فلاح الدنيا والآخرة وفوزها بالتركية، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ۝١﴾ وَقَدْ حَآبَ مَنْ دَسَّهَا ﴿[الشمس: ١٠-٩]، وقال: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ۝٧٥﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿[طه: ٧٥-٧٦]، والدنيا إنما هي مزرعة الآخرة، فمن غفل فيها تصرمت أوقاته، ثم اشتدت عليه حسراته، فالأعمال تطوى، والأعمار تفضى، ومن أطال الأمل نسي العمل، وغفل عن الأجل، بكى أبو هريرة في مرضه الذي مات فيه، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: «أَمَا إِنِّي لَا أَبْكِي عَلَى دُنْيَاكُمْ هَذِهِ، وَلَكِنِّي أَبْكِي عَلَى بُعْدِ سَفَرِي وَقَلَّةِ زَادِي، وَأَنِّي أَصْبَحْتُ فِي صُعُودٍ مُهْبِطٍ عَلَى جَنَّةٍ وَنَارٍ، لَا أَدْرِي أَيُّهُمَا يُؤْخَذُ بِي»^(١).

وإن من أهم الأمور التي تعين على تزكية النفس؛ كثرة

(١) رواه أبو نعيم في الحلية.

العبادة وشغل النفس بها، وهذا كان هدي النبي ﷺ، فعن عطاء، قال: «دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة ؓ، فقال عبيد بن عمير: حدثينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ؟ فبكت، فقالت: لَمَّا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي، قَالَ: «يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحِبُّ قُرْبِكَ، وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ، قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ جِجْرُهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ لِحِيَّتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤَذِّنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَأَاهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقْدَمُ وَمَا تَأْخُرُ؟ قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَبَلَ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا ۝ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴿[الآية كلها] آل عمران: ١٩٠»^(٢).

وكان ﷺ يقوم حتى تتفطر قدماه، وقال علي ؓ «مَا كَانَ فِيْنَا فَارِسٌ يَوْمَ بَدْرٍ غَيْرَ الْمُقْدَادِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا فِيْنَا قَائِمٌ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ شَجَرَةٍ يُصَلِّي وَيَبْكِي حَتَّى أَصْبَحَ»^(٣).

وبالنبي ﷺ اقتدى الصحابة ؓ قال العباس ؓ:

(٢) رواه ابن حبان وأبو الشيخ.

(٣) رواه أحمد وابن خزيمة وابن حبان.

«كُنْتُ جَارًا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ عُمَرَ، إِنَّ لَيْلَهُ صَلَاةً، وَإِنَّ نَهَارَهُ صِيَامٌ وَفِي حَاجَاتِ النَّاسِ»^(٤).

وقال جعفر بن عمرو: «كُنَّا فِتْنَةً مِنْ أَبْنَاءِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قُلْنَا: إِنَّ آبَاءَنَا قَدْ سَبَقُونَا بِالْهَجْرَةِ وَصُحْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَهَلُمُّوا تَجْتَهِدْ فِي الْعِبَادَةِ لَعَلَّنَا نُدْرِكَ فَضَائِلَهُمْ مِنْهُمْ أَوْ كَمَا قَالَ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حُدَيْفَةَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ طَلْحَةَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَسْوَدِ بْنِ عَبْدِ يَغُوثٍ قَالَ: فَاجْتَهَدْنَا فِي الْعِبَادَةِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَذْرَكْنَا تَمِيمًا الدَّارِيَّ شَيْخًا فَمَا قُمْنَا لَهُ وَلَا قَعَدْنَا فِي طُولِ الصَّلَاةِ»^(٥).

وأما عبادة الإنفاق، فقال عروة: «لَقَدْ رَأَيْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا تَقْسِمُ سَبْعِينَ أَلْفًا وَإِنَّهَا لَتَرْفَعُ جَيْبَ دِرْعِهَا»^(٦).

وعلى هذا مضى الأوائل جيلا بعد جيل، قال حماد بن سلمة: «مَا أَتَيْنَا سُلَيْمَانَ التَّيْمِيَّ فِي سَاعَةٍ يُطَاعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا، إِلَّا وَجَدْنَاهُ مُطِيعًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكُنَّا نَرَى أَنَّهُ

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية.

(٥) رواه أحمد في الزهد.

(٦) رواه أحمد في الزهد.

قد أفلح من تزكى



السيرة
محمد بن حنين

دينه» (١١).

بهذا ونحوه ساد الأوائل وعزوا وزكت نفوسهم، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، والحمد لله رب العالمين.

لَا يُحْسِنُ يَعَصِي اللَّهَ تَعَالَى» (٧).

وقال مصعب بن عبد الله قال: «سمعَ عامرُ بن عبد الله بن الزبير المؤدّنَ وهو يجودُ بنفسِهِ، فقال: خذوا بيدي. فقيّل: إِنَّكَ عَلِيلٌ! قَالَ أَسْمَعُ دَاعِيَ اللَّهِ، فَلَا أُجِيبُهُ. فَأَخَذُوا بِيَدِهِ، فَدَخَلَ مَعَ الْإِمَامِ فِي الْمَغْرِبِ، فَرَكَعَ رَكْعَةً، ثُمَّ مَاتَ» (٨).

وقال ضمرة بن ربيعة: «حَجَجْنَا مَعَ الْأَوْزَاعِيِّ سَنَةَ خَمْسِينَ وَمِائَةٍ، فَمَا رَأَيْنَاهُ مُضْطَجِعًا عَلَى الْمَحْمَلِ فِي لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ قَطُّ، وَكَانَ يُصَلِّي فَإِذَا غَلَبَهُ النَّوْمُ اسْتَنَدَ إِلَى الْقَتَبِ» (٩).

«وكان أبان بن عثمان بن عفان يشتري أهل البيت، فيكسوهم، ويعتقهم، ويقول: أستعين بهم على غمرات الموت، فمات وهو نائم في مسجده» (١٠).

وقال الوليد بن مسلم: «رأيت الأوزاعي يثبت في مصلاه، يذكر الله، حتى تطلع الشمس، ويخبرنا عن السلف: أن ذلك كان هديهم، فإذا طلعت الشمس، قام بعضهم إلى بعض، فأفاضوا في ذكر الله، والتفقه في

(٧) رواه ابن الجعد وأبو نعيم.

(٨) صفة الصفوة وسير أعلام النبلاء.

(٩) رواه البيهقي في الشعب وابن عساكر في تاريخ دمشق.

(١٠) سير أعلام النبلاء.

